

« الحكمة من إنزال القرآن الكريم مُنَجِّمًا، وأوّل وآخر ما نُزِّلَ منه »

1- الحكمة من إنزال القرآن الكريم مُنَجِّمًا (مُفَرِّقًا):

إنّ في إنزال القرآن الكريم مُنَجِّمًا حِكْمَةً رَبَّانِيَّةً، تتمثّل في:

أ- تَثْبِيتِ قَلْبِ الرُّسُولِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : فقد ظلَّ الرُّسُولُ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ثلاثة عشر عامًا في مكّة يدعو قومه إلى الإيمان، فلم يؤمن به إلا القلّة، ولقي من عنّت المشركين الشيء الكثير، فاضطرَّ للهجرة إلى المدينة، وفيها قضى عشرة أعوام في كفاح ضدّ الكُفْر والشُّرْك. وقد حفلت هذه الأعوام بغزوات اقتضت جهدًا كبيرًا، وسعيًا شاقًّا من أجل رفع راية الإسلام.

فالرُّسُولُ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) والصحابة، والحالة هذه، بأشدّ الحاجة إلى ما يُثَبِّت قلوبهم. وقد أوضح هذه الغاية من إنزال القرآن مُنَجِّمًا العديد من آيات القرآن. قال تعالى:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾

(الفرقان: ٣٢)، وقال: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ

ءَامَنُوا ﴾ (النحل: ١٠٢)، وقال: ﴿ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ (الأنفال:

١١)، وقال: ﴿ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّنَّاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء: ٧٤)،

وقال: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَأُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ (الأحقاف: ٣٥)، وقال: ﴿ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا

يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ (المزمل: ١٠).

قال الإمام بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي في كتابه «البرهان في علوم القرآن»: «فإن قلت: ما السرُّ في نزوله إلى الأرض مُنْجَمًا؟ وهلا نزل جملة كسائر الكتب؟ قلت: هذا سؤال قد تولى الله سبحانه جوابه، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ (الفرقان: ٣٢)، يعنون: كما أنزل على من قبله من الرسل. فأجابهم الله بقوله: ﴿كَذَلِكَ﴾، أي: أنزلناه كذلك مفرقًا، ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ (الفرقان: ٣٢)، أي: لنقوي به قلبك، فإن الوحي إذا كان يتجدد في كل حادثة، كان أقوى للقلب، وأشدَّ عناية بالمرسل إليه. ويستلزم ذلك كثرة نزول الملاك إليه، وتجديد العهد به وبما معه من الرسالة الواردة من ذلك الجانب العزيز، فحدث له من السرور ما تقصر عنه العبارة، ولهذا كان أجود ما يكون في رمضان، لكثرة نزول جبريل عليه السلام^(١).

ب- المساعدة على حفظه وتثبيتته في الصدور، فالقرآن الكريم حوى من الحكم والتشريع والأسرار ما يستحيل استيعابه لو نُزِّل دفعة واحدة، فאלله، عزَّ وجلَّ، كان رفيقًا بالرسول (صلَّى الله عليه وسلَّم) وبالمؤمنين في إنزاله منجَّمًا، وذلك ليسهل على الرسول (صلَّى الله عليه وسلَّم) حفظه، وليقرأه على الناس قراءة المتأنِّي حتى يستطيعوا حفظه واستيعابه. وقد أشار الله عزَّ وجلَّ إلى هذه الغاية بقوله ﴿وَقَرَأْنَا لَهُ فَرَقَاتٍ لِّقَرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكَّةٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا﴾ (الإسراء: ١٠٦).

ج- التدرُّج في تعليم الناس، فالقرآن الكريم كتاب هداية، نُزِّل على النبي (صلَّى الله عليه وسلَّم) ليُخرج الناس من الظلمات إلى النور، ومجتمع الجاهليَّة بما فيه من المفاصد والتخلف ما كان ليستطيع أن يستوعب هذا الفيض من العلم والهداية والحكمة الإلهية لو نُزِّل عليه القرآن دفعة واحدة.

د- التدرُّج في نقل الناس من المفاصد إلى الحياة الإسلامية الصحيحة، فالخمر لم يُحرَّم دفعة واحدة، ونُزِّل على الناس من الأحكام في مختلف الظروف ما اقتضت الحكمة الإلهية تخفيفه أو تعديله، رعايةً لصالح المجتمع الإنساني. فالقرآن الكريم «بعضه منسوخ وبعضه ناسخ، ولا يتأتَّى ذلك إلا فيما أنزل مُفرَّقًا. قال ابن فورك: قيل: أنزلت التوراة جملةً: لأنها نزلت على نبيٍّ يقرأ ويكتب - وهو موسى - وأنزل القرآن مُفرَّقًا،

^١ - البرهان في علوم القرآن 231/1.

لأنه أنزل غير مكتوب على نبيٍّ أميٍّ. وقيل: ممّا لم يُنزل لأجله جملة واحدة أن منه الناسخ والمنسوخ، ومنه ما هو جواب لمن يسأل عن أمور، ومنه ما هو إنكار لما كان⁽²⁾.

2- ما نُزل أوّلاً من القرآن الكريم:

اختلف العلماء في تعيين أوّل ما نُزل من القرآن على أربعة أقوال:

أ- القول الأوّل يذهب إلى أنّ أوّل ما نُزل على النبي (صلى الله عليه وسلم) هو:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ

الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق: ١ - ٥)، وهذا القول أصحّ الأقوال استناداً إلى حديث صريح

لعائشة، رضي الله عنها، في هذا الأمر، فقد جاء في صحيح مسلم: «حدّثني أبو الطاهر أحمد بن عمرو بن عبدالله بن عمرو بن سرح. أخبرنا ابن وهب، قال: أخبرني يونس عن ابن شهاب. قال: حدّثني

عروة بن الزبير، أن عائشة زوج النبي (صلى الله عليه وسلم) أخبرته أنها قالت: كان أوّل ما بُدئ به رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم. فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح⁽³⁾. ثم حُبب إليه الخلاء⁽⁴⁾ فكان يخلو بغار حراء⁽⁵⁾ يتحنّث⁽⁶⁾ فيه (وهو التّعبّد) الليالي أوّلات العدد⁽⁷⁾. قبل أن يرجع إلى أهله. ويتزوّد لذلك. ثم يرجع إلى خديجة، فيتزوّد لمثلها. حتى فجئه الحق⁽⁸⁾، وهو في غار

²- البرهان في علوم القرآن 231/1.

³- فلق الصبح وفرق الصبح هو ضياؤه. وإنما يقال هذا في الشيء الواضح البين.

⁴- الخلاء هو الخلوة. قال أبو سليمان الخطابي رحمه الله: حببت العزلة إليه (صلى الله عليه وسلم) لأن معها فراغ القلب، وهي معينة على التفكير، وبها ينقطع عن مألوفات البشر ويتخضع قلبه.

⁵- الغار هو الكهف والنقب في الجبل. وأما حراء فهو جبل بينه وبين مكة نحو ثلاثة أميال، عن يسار الذهاب من مكة إلى منى.

⁶- أصل الحنث الإثم. فمعنى يتحنّث: يتجنب الحنث. فكأنه بعبادته يمنع نفسه من الحنث. ومثل يتحنّث يتخرج وينأثم. أي: يتجنب الحرج والإثم.

⁷- متعلّق «يتحدّث» لا «بالتعبّد»، والمعنى: يتعبّد الليالي، إذ لو جعل متعلّقاً بالتعبّد فسد المعنى. فإن التحنّث لا يشترط فيه الليالي، بل يطلق على القليل والكثير. وهذا التفسير اعترض بين كلام عائشة رضي الله عنها. وأما كلامها: فيتحنّث فيه الليالي أوّلات العدد.

⁸- أي: جاءه الوحي بغتة. فإنه (صلى الله عليه وسلم) لم يكن متوقّعا للوحي.

حراء. فجاءه الملكُ فقال: اقرأ. قال «ما أنا بقارئ»⁽⁹⁾. قال، فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد. ثم أرسلني فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد. ثم أرسلني فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)﴾⁽¹⁰⁾ (العلق: ١ - ٥). فرجع بها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ترجفُ بوادره⁽¹¹⁾ حتى دخل على خديجة فقال: «زمِّلوني⁽¹²⁾ زمِّلوني»، فزمِّلوه حتى ذهب عنه الروع⁽¹³⁾. ثم قال لخديجة «أي خديجة! ما لي» وأخبرها الخبر. قال: «لقد خشيت على نفسي». قالت له خديجة: كلا⁽¹⁴⁾. أبشر، فوالله، لا يخزيك⁽¹⁵⁾ الله أبداً.

ب- القول الثاني: إنَّ أول ما نُزلَّ قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْمُدَّثِّرُ (١)﴾ (المدثر: ١). وهذا الرأي يستند إلى ما جاء في الصحيحين من أنَّ جابر بن عبد الله الأنصاري، وكان من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، قال: «قال رسول الله، وهو يُحدِّث عن فترة الوحي: «فبينما أنا أمشي، سمعت صوتاً من السماء، فرفعت رأسي، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالساً على كرسي بين السماء والأرض». قال رسول الله: «فجئْتُ منه فرقاً»⁽¹⁶⁾، فرجعت فقلت: زمِّلوني زمِّلوني، فدثروني. فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَتَبَارَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥)﴾ (المدثر: ١ - ٥)، وهي الأوثان. قال: ثم تتابع الوحي»⁽¹⁷⁾.

⁹- معناه: لا أحسن القراءة.
¹⁰- هذا دليل صريح في أنَّ أول ما نزل من القرآن: اقرأ. وهذا هو الصواب الذي عليه الجماهير من السلف والخلف. سورة العلق، الآيات 1 - 5.
¹¹- البوادر، جمع بادرة، وهي اللحمة التي بين المنكب والعنق، تضطرب عند فزع الإنسان.
¹²- أي: غطوني بالنَّيَاب، ولقوني بها.
¹³- الروع: الخوف الشديد.
¹⁴- كلا: هي هنا كلمة نفي وإبعاد.
¹⁵- الخزي: الفضيحة والهوان.
¹⁶- أي: فخفت منه خوفاً شديداً.
¹⁷- صحيح مسلم 143/1.

والواقع أنّ في هذا الحديث ما يدلّ دلالة صريحة على أنّ سورة المدثر ليست أوّل ما نُزِّل من القرآن، وذلك في موضعين: أوّلهما قوله: «وهو يحدث عن فترة الوحي». وثانيهما من قوله: «فإذا الملك الذي جاءني بحراء».

ولا تضادّ بين الحديثين، فأوّل ما نُزِّل: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (العلق: ١) بغار حراء، فلما رجع إلى خديجة، رضي الله عنها، وصبّت عليه الماء البارد، أنزل الله عليه في بيت خديجة ﴿يَتَأْتِيَهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ (المدثر: ١).

ج- القول الثالث إنّ أوّل ما نُزِّل هو الفاتحة، وهذا القول يستند إلى حديث مرسل سقط من سنده الصحابي⁽¹⁸⁾. ولم يقل بهذا القول إلا قلّة من العلماء.

د- القول الرابع إنّ أوّل ما نُزِّل هو ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، وهذا القول يستند إلى حديث أخرجه الواحدي عن عكرمة والحسن. قالوا: «أوّل ما نُزِّل من القرآن ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وأوّل سورة، سورة اقرأ»⁽¹⁹⁾.

3- آخر ما نُزِّل من القرآن الكريم:

اختلف فيه على عشرة أقوال، فهو:

في القول الأول قوله تعالى: ﴿وَأَنقُضُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٨١).

في القول الثاني: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة: ٢٧٨).

¹⁸ - انظر: الإتيان في علوم القرآن 52/1.

¹⁹ - المصدر نفسه 52/1.

- في القول الثالث: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنُتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاصْتَبَوْهُ
كَاتِبٌ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٨٢).

- في القول الرابع: ﴿فَاصْتَجَبَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ
أُنْثَىٰ﴾ (آل عمران: ١٩٥).

- في القول الخامس: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا
فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٩٣)

- في القول السادس: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ (النساء: ١٧٦).

- في القول السابع: سورة المائدة.

- في القول الثامن: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ
حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا
هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (التوبة: ١٢٨ - ١٢٩)

- في القول التاسع: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾
(الكهف: ١١٠).

- في القول العاشر: سورة الفتح⁽²⁰⁾.

وهذه الأقوال تستند إلى اجتهادات الصحابة، رضي الله عنهم، وليس إلى الأحاديث
النبوية. قال القاضي أبو بكر في كتابه «الانتصار»: «وهذه الأقوال ليس في شيء منها
ما رُفِعَ إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) ، ويجوز أن يكون قائله بضرب من الاجتهاد،

²⁰- انظر: الإتقان في علوم القرآن 57/1 - 60.

وتغليب الظنّ. وليس العلم بذلك من فرائض الدين، حتى يلزم به ما طعن به الطاعنون من عدم الضبط.

ويُحتمل أنّ كلاً منهم أخبر عن آخر ما سمعه من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في اليوم الذي مات فيه، أو قبل مرضه بقليل، وغيره سمع منه بعد ذلك، وإن لم يسمعه هو لمفارقته له، ونزول الوحي عليه بقرآن بعده.

ويُحتمل أيضاً أن تنزل الآية التي هي آخر آية تلاها الرسول (صلى الله عليه وسلم) مع آيات نُزّلت معها، فيؤمّر برسم ما نُزّل معها، وتلاوتها عليهم بعد رسم ما نُزّل آخرًا وتلاوته، فيظنّ سامع ذلك أنه آخر ما نُزّل في الترتيب»⁽²¹⁾.



²¹ - البرهان في علوم القرآن 210/1.